القهـوة ...

بحث اجتماعى فى المقاهى العامة

للأديب عبد المعطى المسيرى

فى البلد نوعان من المدارس ، أحدهما للصغار ، والآخر للكبار ...

أما الأول فهى " المدرسة " بالمعنى المألوف ، وأما الثانى فهى " القهوة " التى شاعت وتفشت فى هذا العصر تفشيا ذريعا يدعو إلى العناية بأمرها ، والنظر فى أثرها .

وقد ارى المصلحون للاهتمام بأمر " المدرسة " فرسموا لها المناهج ووضعوا لها البرامج ، وما يزالون دائبين عاملين على السير بها من إصلاح إلى إصلاح ، ملحين عليها بالبحث والدراسة والاستقصاء ، على حين حرمت المدرسة الثانية وأعنى بها " القهوة " ممن يعنى بأمرها ، وينظر فى تفاقم خطرها .

وقد خطر لى أن أكتب دراسة عن " مشكلة القهاوى " راجيا أن يعتبرها المصلحون تمهيدا وبداءة ودافعا لهم على النظر فى أمر " القهوة " والعناية به .

وليكن شفيعى فى الكلام عن " القهاوى " نفى " فيبوجنر " أعترف أكثر من غيرى ما للقهوة من خطر وما لها من أثر على الصحة والعقل والجيب ، وعلى الأسرة والوطن ، فقد لمست ذلك عن كثب ، وكل ميسر لما خلق له .

مشكلة القهاوى :

تتنافس القهاوى تنافسا عظيما فى ابتكار وسائل التسلية . فهى لكى تفوز بثقة روادها وتضمن ترددهم لا تخل عليهم بكل ما من شأنه تلهيتهم عن الوقت ومعاونتهم على تضييعه ، من راديو — وراديو القهوة بوجه واحد لنقل الإذاعة والأخرى للاسطوانات الخاصة بالقهوة — الى فنون أخرى عديدة مختلفة من ذوات اللعب . كالطاولة والدومينو والشطرنج والورق ... وما إلى ذلك ، وأفضل القهاوى لدى الساهرين من حازت قصب السبق فى هذا المضمار ، وليس ثم اعتراض على تفنن " القهوة " فى مساعدة الساهر على تزجية فراغهم لو كان الأمر أمر فراغ بالمعنى المألوف ، ولكنه طريقة واعية للاستغبار " وطاحونة لا تنى ولا تفتر عن الدوران : أثناء الليل وأطراف النهار ، ففى أية ساعة تسمع الهوعة والعتاب والأنين ، وتشهد حلقات اللعب عامرة باللاعبين ، فهذا طالب كان ينبغى أن يكون فى معهده

أغوته القهوة بجلس ينصت إلى أنات المغنين . وذلك عامل ألهاه عن عمله إغراء اللعب له بالتفرج أو المشاركة ، وآخر عاطل كان أولى به أن يلح فى طلب العمل والبحث عنه ولكنه يؤثر الجلوس على إفريز القهوة كأنما على العمل أن يبحث عنه ويحضر إليه ! وهكذا يمر الوقت وينساب كالماء دون أن يفطن اليه ، أو يقوى أحد على صده ، فالقهوة حين تيسر لرائدها ضياع الوقت يزعم وتزعم أنها أحسنت اليه مع أنها سلبته أعز شيء فى الحياه ، وهل أعز من الوقت ؟ فيه تكمن الفرص ، وبه يحقق الإنسان ما يشاء أو ما يستطيع ، تستطيع الجهود أو الحظوظ أو الأقدار أن تعوض الانسان ما فقده ، ولكنها جميعا تقف عاجزة عن أن ترد اليه ثانية واحدة من الوقت ، فأى شيء أعز من هذا الذى اذا فقد لا يرد ولا يعوض ؟ والوقت كباقى المسائل الكبرى مثل الشمس والهواء والماء جعلها الله اشتراكية ينعم بها الجميع ، فكما أن الشمس تلقى أشعتها على القصر الشاهق إذ هى فى نفس الوقت تعانق الكوخ الحقير ، وكذلك الوقت فساعة المتأهب المجد هى ساعة المتكئ الكسول ولكن الأول يدرك خطرها فلا يدعها تمر بدون أن يفيد من دقائقها وثوانيها بينما الثانى يستصرخ الحذق ليتسنى له بغتتها ، ومن ثم كان فلان الجليل وفلان الذليل .

ورب معترض يقول : وماذا يعمل العاطل إن لم يجلس فى القهوة ؟

ولكنى أقول له : من الخير أن يكون هذا العاطل فرصة يفكر فيها فى حاله وفى ظروفه وفى نفسه ، إما أن يتوارى عن الأنظار ويقعد فى القهوة التى تلهيه وتسليه وتهون عليه الأمر فهذا من العبث بمكان . وجناية القهوة عليه لا تقل عن جنايتها على الطالب أو العامل بحال .

أما جناية القهوة على الصحة فواضحة وليست بحاجة الى تدليل ، فلو لم تكن "القهاوى" بهذه الكثرة وعلى هذا النحو من الإغراء لكان فى الرياضة غنى للسامرين عنها ولقضوا بعض الوقت فى ممارسة الألعاب الرياضية ولربح الوطن من وراء ذلك أجساما فتية قوية يعتمد عليها فى حمى الذمار ، ويفخر بها عند مقارعة الرجال بالرجال ، وندع الرياضة وننظر فى أمر هذا المسكين الذى يقبع الساعات على كرسيه داخل "القهوة" يتنفس هواءها المزوج بدخان الشيشة واللفائف هذا فضلا عما يمازجه ويعيش به من ميكروبات الأمراض المختلفة والعلل المتباينة .

وهكذا تؤثر القهوة على المرء فتبعثر وقته وهو رأس ماله وتنهك صحته وهو عماده ، ثم تسيء إلى عقله ، ولست أقصد الاشارة الى ما تحدثه ضوضاؤها فحسب ، ولكنى أشير الى هذا الجيش العرمرم من الأدميين الذين كانت أولى بهم مدارس ليلية تعالج إطلاقهم من أثر

الجهل ، ثم إلى هذا العدد العظيم من أنصاف وأرباع المتعلمين الذين تصدهم " القهوة " عن محاولة استكمال ما ينقصهم لأنهم لا يجدون الوقت الذى يتسع لذلك ، أو بعبارة أخرى لا يجدون الفرصة التى ينتبهون فيها الى ما يكتنفهم من ظلام ، فالقهوة تتلقفهم من البيت ليلهوا فى جوانها ثم تردهم ثانية الى البيت ليناموا وهكذا على التوالى .

وينبغى أن لا نغفل أمر الكثيرين الذين ينفقون يوميا بضعة قروش فى القهوة على حين هم فى اشد الحاجة اليها ، فهاته القروش تكفى لأن تظهرهم بمظهر حسن أو تفى بنفقات تعليم ابن لهم أو تضاف الى ثمن الطعام فتجعله أكثر غذاء وأحسن طعما ، فان لم يكن شىء من هذا فقد تجمع منها ثروة لا بأس بها .

أقول ذلك لأنى أعرف أن لنفقات القهوة ضد الطبقات الفقيرة ميزانية خاصة من الخير اعتادها للشؤون الأخرى .

ونتقل إلى خطر القهوة على "البيت" وهو من أشد الأخطار عصفا بالأسر والأخلاق ، فالقهوة تقيم من نفسها حاجزا أو هوة بين الرجل وبيته تأخذه من البيت عند تيقظه فلا ترده إليه إلا عند احتياجه إلى النوم ، وما أكثر هؤلاء الذين لا يعرفون الطريق إلى بيوتهم إلا إذا أشار جندى البوليس بوجوب ذلك ، وهكذا تحرم الأسرة من السعر مع عائلها فتحرم بذلك من البهجة والفرح وتحرم مما هو أشق من ذلك ، تحرم من نظر الرجل لمختلف شؤونها فيبت فى هذه الشؤون ارتجالا دون درس وتمحيص وأين هى الفرصة التى تمكنه من ذلك وهو لا يرجع إلى بيته إلا موهن الأعصاب ، محطم الكيان لا يفكر إلا فى النوم والراحة .

ومن ثم كانت القهوة الفيصل بين الرجل والمرأة فلا تقاليدنا تبيح للمرأة الاختلاف إليها ولا هى تدع الرجل لأسرته ، فلولم تكن "القهوة" لعنى الرجل ببيته وهيأ له وسائل التسلية التى تلائمه والسعر مع أسرته ، وبذلك تتاح لبيوتنا الفرصة المنشودة ، وتظفر بالنعيم الضائع وينشأ من ذلك التآلف ، فيرشد الرجل المرأة وتنصح هى له ، ويشعر أولادنا بحو العائلة وما يكمن ويشيع به من هناء وصفاء .

هذا هو الداء .

وأما العلاج فله وسيلتان :

الوسيلة الأولى هينة ليسة تتمشى مع الديمقراطية ومع كل ما نبغيه ونسعى إليه من إرشاد وإصلاح ، وهى أن نكثر من الأندية الرياضية مع تيسير الالتحاق بها وجعلها فى متناول كل شخص ، وكذلك تعنى وزارة الشؤون الاجتماعية بالاشتراك مع وزارة المعارف العمومية والجمعيات الخيرية بانشاء المدارس الليلية بعضها لتعليم المبتدئين والآخر لتزويد وترقية المتعلمين .

هذا مع الدعاية اللازمة لترغيب الجمهور فى الثقافة والرياضة ، فان أجدت هذه الوسيلة أخذنا بها وان لم يثبت نفعها فليس من بأس علينا من استبدال اللين بالشدة والقسوة التى يعقبها الخير أنفع من اللين الذى ينطوى على الشر .

علينا أن نلجأ الى سن قانون يقضى بمنع الجلوس فى القهاوى الا فى ساعات معينة فى الليل أو فى أيام المواسم والأعياد أو فى أوقات الفراغ بالمعنى الصحيح . ولئن يحرم الناس من بعض ملاذهم ويقسروا على ذلك خير ألف مرة من تركهم يتخبطون فى دياجير الجهل معرضين لنوائب الأمراض الجسمية والخلقية .

ولنكن لنا أسوة فى نهج بعض الأمم فى هذا الشأن ، فقد علمت أن أمما فى مقدمتها بريطانيا لا تعرف "القهاوى" على النحو الشائع عندنا . صحيح أن هناك قهاوى ولكنها معدة لتناول الشاى فقط لا للجلوس وتضييع الوقت ، هناك يدخل الشخص ليشرب ما يشتهى ثم يسارع بالذهاب الى شأنه ، حتى إن أكثر القهاوى ليست بها مقاعد ، وما حاجة المرء للمقعد وهو يضن بوقته ولا يسمح للقهوة أن تستنزف منه أكثر مما يحتاجه شرب الشاى أو القهوة ؟؟

لنقلدهم فى ذلك مادمنا نمعن فى تقليدهم فى كل شىء !!

فهل يستقيم لنا الأمر ويتاح لنا أن نوجه هذه الجموع الحاشدة التى تضيق بها القهاوى والتى تنفق وقتها عبثا ؟؟

أقول ... هل يتاح لنا رؤيتها وقد استعاضت عن ذلك بالتعليم والرياضة وبما يعود عليها وعلى الوطن بالنفع والخير ؟

وهل ترد إلى بيوتنا بهجتها وأنسها بين الرجل يسمر فيها مع أفراد أسرته ؟؟

من يدرى ... قل عسى أن يكون قريبا ... !!

(دمنهور) عبد المعطى المسيرى